

خرق مبدأ التعاون ومعانيه الضمنية وفق نظرية غرايس (حوار النبي صالح عليه السلام مع قومه أنموذجا)
م. مرقية عبدالرحمن مخلف

جامعة الأنبار / كلية الإدارة والاقتصاد قسم إدارة الأعمال

Violating the Cooperative Principle and Its Implicatures According to Grice's Theory:

The Dialogue of Prophet Ṣāliḥ (Peace Be Upon Him) with His People as a Model

Assistant Lecturer Ruqaya Abdulrahman Makhlef

University of Anbar / College of Administration and Economics

Department of Business Administration

ruqaya.a.m@uoanbar.edu.iq

الملخص :

يدرس هذا البحث خرق مبدأ التعاون لحوار النبي صالح (عليه السلام) مع قومه، وفق نظريته بول غرايس؛ فبناءً على ذلك يتطرق إلى المعاني الضمنية التي يلوح بها المرسل من خلال خرقه إحدى قواعد مبدأ التعاون، وقد اعتمدت الباحثة على المنهج الوصف التحليلي، ويرتكز البحث على استخراج المعاني الضمنية التي ينويها المرسل، ففي المرحلة الأولى يبين بأن هناك علامات لغوية في كلام المرسل إليه تدل على استيعاب المعنى الضمني من قبله كما تتفق هذه العلامات مع مؤشرات لغوية أخرى -في كلام المرسل- تؤدي دوراً فاعلاً في انتقال المعنى إلى المرسل إليه لاستنباط المعنى الضمني، علماً بأن البحث توصل إلى أن الخرق قد تم وفق القواعد الأربع من مبدأ التعاون (الكَم والكيف والمناسبة والطريقة) كافة. وأن هذا الخرق لم يكن اضطراباً في التواصل، بل كان يؤدي وظيفة تداولية مقصودة، أسهمت في توليد معاني ضمنية متعددة، وكشف المواقف الحجاجية والنفسية للمتخاطبين، وإبراز طرائق ردود قوم صالح (عليه السلام) لخطابه. كما أظهر التحليل أن فهم المعاني الضمنية لا يتوقف على البنية اللغوية وحدها، وإنما يتشكل من خلال تفاعلها مع السياق ومقاصد المتكلمين والقرائن المصاحبة للخطاب، مما يؤكد فاعلية المنظور التداولي في الكشف عن الأبعاد الدلالية والحجاجية للحوار القرآني. **الكلمات المفتاحية:** النبي صالح (عليه السلام)، مبدأ التعاون، المعنى الضمني، خرق، غرايس.

Abstract

This study investigates violations of the Cooperative Principle in the dialogue between Prophet Ṣāliḥ (peace be upon him) and his people in light of Paul Grice's theory. It examines the implicatures conveyed by the speaker through violating one or more of the maxims constituting the Cooperative Principle. The study adopts a descriptive-analytical approach, focusing on identifying the implicit meanings intended by the speaker. The study first demonstrates that there are linguistic indicators in the addressee's speech that reveal his recognition and comprehension of the implied meaning. These indicators correspond with other linguistic cues in the speaker's discourse, which play an active role in conveying the intended meaning to the addressee and enabling him to infer the implicature. The analysis shows that violations occur across all four of Grice's conversational maxims: Quantity, Quality, Relation, and Manner. The findings further demonstrate that these violations do not constitute a disruption of communication; rather, they perform deliberate pragmatic functions and contribute to generating multiple implicatures. They also reveal the argumentative and psychological stances of the interlocutors and highlight the ways in which the people of Prophet Ṣāliḥ (peace be upon him) responded to his discourse. Furthermore, the analysis shows that the interpretation of implicatures does not depend solely on linguistic structure; rather, it emerges through the interaction between linguistic form, contextual factors, speakers' communicative intentions, and the contextual cues accompanying the discourse. This confirms the effectiveness of the pragmatic approach in

revealing the semantic and argumentative dimensions of Qur'anic dialogue. **Keywords:** Prophet Ṣāliḥ (peace be upon him); Cooperative Principle; Implicature; Violation; Grice.

المقدمة:

تعتبر التداولية فرع من فروع علم اللغة الذي يبحث عن المظاهر اللغوية الموجودة في محادثات الإنسان اليومية . والتداولية مبحث لساني جديد ومن أهم المفاهيم التي تقوم عليها التداولية والاستلزام الحواري الذي وضعه الفيلسوف بول غرايس . وهذا المفهوم مرتبطاً بلسانيات الخطاب التي أخذ البحث اللساني معها منحه متميزاً ، فلم يعد الأمر معناها بوضع نظريات عامه لعملية الخطاب، بل أصبح الاهتمام منصبا على العملية نفسها. لقد استعار غرايس هذه العناوين من الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت الذي تحدث عن مقولات (الكيف والكم والجهة والاضافة). وبما ان الاستلزام يبرز جانبا من جوانب الكثير من الإعجاز القرآني، كما يقدم تفسيراً صريحاً للتركييب القرآنية ، خاصه الضمني منها ، ولما كان القرآن رسالة شاملة خالدة يشتمل على جميع عناصر العملية التبليغية ، ولكي يحقق المقاصد السامية والغايات النبيلة والقيم الرفيعة اعتمد أساليب متنوعة في الخطاب القرآني وتميز بأحسن القصص ؛ لان القصص هي أحد ينباع الاستدلال كونها محركاً للعقول . . يحاول هذا البحث دراسة تطبيقية لنظرية غرايس على قصة النبي صالح (عليه السلام) والمعجزة الناقية ؛ لتظل الآثار القدرة الربانية مماثلة أمام الأبصار. أن هذه الأساليب كان الغرض منها الاعتبار والاعتناظ والاستلزام الدروس . ونظراً لأهمية نظرية الاستلزام الحواري في اللسانيات الحديثة تناولنا خرق مبدأ التعاون وفق نظرية غرايس مع ذكر الشواهد في القصة وتطبيقها بطريقه وصفية تحليلية في حوار النبي صالح (عليه السلام) مع قومه. وهذه الدراسة كشفت عن الملامح الخفية لكل الحوارات والدلالات التي تعطيها الحوارات عندما تخرج عن المبدأ خروج متعمداً يهدف إلى الملاحظة او دلالة خاصة لا تظهر إلا بهذا النقض والخرق لمبدأ من المبادئ الحوار الأربعة وفق رؤية غرايس.

المبحث الأول: الاستلزام الحواري ومكونات الحوار عند غرايس

يُعدُّ الاستلزام الحواري من أهم الجوانب في الدراسة التداولية فهو أصقها بطبيعة البحث فيه، وأبعدها عن الالتباس بمجالات الدرس التداولي، تعود نشأة البحث فيه إلى تلك المحاضرات التي القاها رائد النظرية "بول غرايس" في جامعه "هارفارد" عام ١٩٦٧، حيث قدّم فيها تصوّره لهذا الجانب من الدرس والأسس المنهجية التي يقوم عليها وتوصل إلى أن الناس في حواراتهم : قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، بل قد يقصدون عكس ما يقولون. وجعل اهتمامه لإيضاح الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد، فأراد أن يقيم مبدأً بين ما يحمله القول من معنى صريح، وما يحمله من معنى متضمن، فنشأت عنده فكرة الاستلزام لتُقيم جسراً بين ما يحمله القول وما يرمي إليها القصد (نحلة، ٢٠٠٢، ٣٢)¹ ووضع على ذلك مبدأ التعاون الذي يحكم الحوار بين المتكلم والمخاطب، وهو مبدأ حواريّ عام مفاده ليكن اسهامك في الحوار بالقدر الذي يطلبه هذا الحوار وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار (صحراوي، ٢٠٠٥، ٣٤)². ثم اقترح أربعة مبادئ او مسلمات متفرعة عنه. مثال لاحترام قواعد مبدأ التعاون:

الزوج : مفاتيح السيّارة ؟

الزوجة: فوق المكتب. ففي هذا الحوار تتمثل مبادئ التعاون التي قررها غرايس ، فقد أجابت الزوجة إجابة واضحة (الطريقة)، وكانت صادقة (الكيف)، واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات (الكم)، وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها (الملاءمة)، فلم يتولد عن قولها استلزام؛ لأنها قالت ما تقصد (المصدر السابق، ٣٥)³. والاستلزام عند غرايس على نوعين (المصدر السابق)⁴:

- استلزام عرفي: قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تتفك عنها مهما اختلفت السياقات وتغيرت التراكيب . من ذلك مثلاً في الإنجليزية لفظة (but) ونظيرتها في اللغة العربية (لكن) ، فهي هنا وهناك تستلزم دائماً أن يكون ما بعدها مخالفاً لما يتوقعه السامع. مثل زيد غني ، ولكنه بخل . ف لفظة (لكن) تستلزم ان يكون ما بعدها مخالفاً لما قبلها .
- استلزام حواريّ: وهو متغير دائماً بتغير السياقات التي يرد فيها ، فحين يقال :كم الساعة الآن ؟ فإن قصد المتكلم يختلف حسب السياق الذي فيه الجملة؛ فقد يكون سؤالاً ، وقد يكون توبيخاً عن تأخر، وقد يكون غير ذلك.

مبدأ التعاون Principal of cooperation المبدأ التداولي الأول للتخاطب جاء به غرايس وذكره لأول مرة في محاضراته التي عنوانها "محاضرات في التخاطب" وذكره مرة أخرى في مقاله " المنطق والتخاطب " (عبدالرحمن، ١٩٩٨، ٢٣٨)⁵. وتحقق قواعد مبدأ التعاون وغايات تواصلية ، وإذا انتهك المتكلم قاعدة منها ، دلنا ذلك على شيء " ضمني " لغاية ما ، أكثر من أن يصرح بها . والنضمين يقترب من وصف

الجاحظ للكناية في البيان والتبيين . من أجل أن يتوصل المخاطب إلى المعنى الضمني ، يجب عليه أن يأخذ في الحسبان ما قيل فعلا والسياق المحيط به .(محمد ، ٢٠١٠ ، ٤٧)^٦. ومن امثلة انتهاك مبدأ التعاون : التورية ، والفكاهة ، والاستعارة والغموض ، وتحسين القبيح ، وتقبيح الحسن ، والاستطرادات ، والخروج عن النص... ومن هنا يظهر لنا أن قيمة مبدأ التعاون ليست في محاولة اتباعه ، أو التقيد به ، بل في انتهاكه وتجاوزه عن قصد لغايات بلاغية (المصدر السابق، ٤٦)^٧. ويثبت مبدأ التعاون فاعليته عندما يأتي النص غير صريح ، من خلال انتهاك هذه المبادئ في محاورات النبي صالح (عليه السلام) مع قومه ، فخرج التراكيب القرآنية إلى أغراض أخرى يظهرها السياق. ويتكون مبدأ التعاون من أربع مسلمات (صحراوي، ٣٣)^٨ وهي:

أ- مبدأ الكم

يخص هذا المبدأ قدر الإخبار الذي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية ، أو اجعل إسهامك في الحوار بقدر ما يطلب من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه ، ويتفرع إلى مقولتين:

- اجعل مساهمتك تفيد القدر المطلوب من الإخبار والمعلومات.

- لتكن مساهمتك غير محتوية حدا يفوق المطلوب من المعلومات.

ب- مبدأ الكيف

- لا نقل ما نعتقد أنه كاذب، وأنه غير صحيح ولا نقل ما لا دليل عليه.

- لا نقل ما لا تعلم أو ما لا تستطيع إثباته.

ج- مبدأ المناسبة

وهو عبارة عن قاعدة واحدة : لتكن مشاركتك ملائمة . أو تحدث بكلام مناسب للمقام ، أي كن على صلة وثيقة بالموضوع.

د- مبدأ الطريقة

ينص على الوضوح في الكلام ويتفرع إلى ثلاث قواعد فرعية :

- تجنب اللبس والغموض والإبهام في التعبير .

- الإيجاز .

- الترتيب ، وليكن كلامك موجزا واضحا ومنظما (مورشلار، ٢١٤)^٩.

حوار النبي صالح(عليه السلام)

يحظى الحوار في الخطاب القرآني باهتمام كبير ومتميز ، لأنه يساعد على تشخيص الأفكار والردود وإخراجها في صورة مبهرة .

اتسم الحوار من جانب النبي صالح (عليه السلام) بالدعوة إلى التوحيد ، والنصح ، والارشاد ، والتحذير من العذاب، في حين كان حوار قومه بصور متعددة كلها دلت على تكذيبهم وانكارهم .

لقد أعطى حوار النبي صالح (عليه السلام) مع قومه مادة نابضة للتحليل التداولي ؛ كونه اشتمل من على الاعتراضات والرفض .

المبحث الثاني: مظاهر خرق مبدأ التعاون والمعاني الضمنية:

أولاً : في سورة الأعراف وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ قد جاءتكم بينة من ربكم هذِهِ ناقةُ الله لَكُمْ آيةٌ

فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ

سُھُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجَثُونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا

أَوَّلًا فَوَأْمَنَ مِنْهُمْ أَنْتَعَلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ

بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ أَتُنَبِّئُ بِنَا عِدْنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي

دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾

أولاً: في الآيتين ٧٣-٧٤ التزم صالح (عليه السلام) بمبدأ التعاون، ولا يخرقه؛ فقد قدم مقداراً كافياً من المعلومات: الدعوة إلى التوحيد، والبيئة،

والناقة ، والتحذير من العذاب. وكان كلامه واضحاً، مرتبطاً بالمقام، ومعللاً بالتذكير بنعم الله. والمعنى الضمني أن التوحيد والشكر وعدم

الإفساد مترابطة، وأن الحجة قد قامت عليهم قبل العقوبة.

ثانياً: في الآية ٧٥، قوم صالح هم الذين سألوا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مَرسل من ربه﴾، أما قول: ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ فهو جواب المؤمنين المستضعفين، وليس جواب قومه. سؤالهم ليس طلباً للمعرفة، بل للشك والإنكار والتعجب، أي: ما اعتقادكم أأمنتم بصالح - عليه السلام - عن علم بصدقه، ولكنكم اتبعتموه عن جهل وضلال غير موقنين. (ابن عاشور، ٨/٢٢٣)١٠. وهذا خرق لمبدأ التعاون أو لقاعدة الكيف من جهة إظهار طلب المعرفة مع أن المقصود الحقيقي هو التشكيك والإنكار، وسؤالهم هذا يحمل في طياته التهديد المبطن؛ لدفعهم إلى التراجع عن إيمانهم.

ثالثاً: جواب قومه «إنا بما أرسل به مؤمنون» ملتزم بمبدأ التعاون: واضح، صادق، مناسب، وكاف. ويدل ضمناً على الثبات، وعدم الخضوع للسلطة الاجتماعية للمستكبرين. أما قول المستكبرين في الآية ٧٦: «إنا بالذي آمنتم به كافرون» فهو واضح وكاف في إعلان موقفهم، ولذلك لا يمثل خرقاً شكلياً للكف أو الكيف؛ لكنه يعطل التعاون الحجاجي، لأنهم يعلنون الرفض من غير مناقشة البيئة. والمعنى الضمني: نحن نرفض ما آمنتم به لمجرد مفاسلتكم، ولا نرى إيمان المستضعفين جديراً بإعادة النظر.

رابعاً: قولهم في الآية ٧٧: ﴿أنتما بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ الوعد يكون في الخير والشر، أي قالوا: أنتما بما وعدتنا به من عذاب الله ونقمته إن كنت رسولا إلينا وتدعي أن وعيدك تبليغ عنه فالله ينصر رسله على أعدائه فعجل لنا ذلك (المراغي ٨/٢٠١). (الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ) (ابن عاشور، ١٢/١١٠)١٢، وردهم هذا خرقاً لمبدأ الكيف فقوم النبي صالح (عليه السلام) لا يؤمنون ولا يصدقون وقوع العذاب لأنهم استخدموا (إن) شرطية جازمة على سبيل التهكم والتكذيب المبطن. يفهم من السياق، وهو العذاب؛ ولذلك فتصنيفه خرقاً لقاعدة الطريقة غير دقيق. وهو أيضاً مرتبط بالوعيد، فلا يخرق المناسبة مباشرة. الأدق أنه طلب ظاهري استعمل لإنجاز فعل كلامي غير مباشر هو التحدي والسخرية، لا طلب وقوع العذاب حقيقة. ومن معانيه الضمنية: نحن لا نصدق وعيدك، ولن نتراجع بعد عقر الناقة، ونعدّ عدم نزول العذاب فوراً دليلاً على كذبك. وهذا يمثل رفضاً لروح التعاون الحواري، وربما مخالفة لقاعدة الكيف بسبب عدم صدقهم في صورة الطلب.

خامساً: خطاب صالح بعد هلاكهم في الآية ٧٩ لا يعد خرقاً لقاعدة المناسبة؛ لأنه ليس حواراً ينتظر منهم جواباً، بل خطاب تقرير وتحسر وإقامة للحجة. ومعناه الضمني: لقد تم البلاغ والنصح، فلا يرجع هلاككم إلى نقص البيان؛ وإنما إلى موقفكم النفسي والأخلاقي الراض للنصح. وفيه كذلك براءة الرسول من تبعة هلاكهم وكشف أن مشكلتهم لم تكن غموض الدليل، بل الاستكبار وكرهية الناصحين

ثانياً : الحوار في سورة هود

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ إني كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ۖ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۚ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝ [هود: ٦١-٦٨]

الدور الأول يلاحظ التزام النبي صالح (عليه السلام) بقواعد التعاون: دعوة محددة، مقرونة بعلتها ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ثم مطلوب عملي ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وختام يرفع كلفة الاستجابة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾. خطاب مباشر، بقدر من المعلومة يناسب المقام، وبترتيب لا غموض فيه. الدور الثاني - جواب القوم، وهو أخصب مواضع التحليل ﴿قَدْ كُنْتُ فِيْنَا مَرْجُوءًا قَبْلَ هَذَا﴾.

هذا جوابهم عند دعوته البليغة الوجيزة، وهو جواب ملئ بالضلال والمكابرة وضعف الحجة وتعرض بخيبة رجائهم فيه فهو تعنيف. وحذف متعلق مرجوا لدلالة فعل الرجاء على أنه ترقب الخير، أي مرجوا للخير، أي الآن وقع اليأس منك. وهذا يفهم منه أنهم يعدّون ما دعاهم إليه شراً، وإنما خاطبوه بمثل هذا؛ لأنه بعث فيهم وهو شاب لخصال السيادة، وحماية العشيرة، ونصرة آلهتهم (الحنبلي، ١٠، ١٩٩٨/٥١٣)١٣. لقد احتوى جواب قوم النبي صالح (عليه السلام) أكثر من خرق لمبدأ التعاون، فالخرق الأول كانت لمبدأ الكم؛ لأنه حذف كما ذكرت اعلاه متعلق مرجوا فهم جعلوا المعلومة مبطنة عمداً لكون الخيبة الأمل عندهم كانت كبيرة.

والخرق الثاني كان عن طريق (العلاقة) المناسبة؛ لأنه عليه السلام دعوته واضحة صريحة، وجوابهم عليه كانت تنكيهه بمكانته بينهم سابقاً ظاهراً ثناء؛ لكنها لا تتصل بموضوع الدعوة اتصالاً مباشراً - فما وجه ذكر مكانته السابقة في مقام النقاش في العبادة؟ ويمكن أن يقرأ هذا بوصفه خرقاً ظاهراً لقاعدة المناسبة، يفضي في السياق إلى استلزام مفاده: أن ما جئت به أسقطك من تلك المنزلة.

﴿أَتْنَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار ، فالجملة باعتبار دلالتها على التعنيف ، وهذا خرقاً لمبدأ (العلاقة) المناسبة ؛ لكونهم جعلوا سبق عبادة الآباء دليلاً صحيحاً لعبادتهم . وبالحقيقة الموروث وحده لا يكفي لإثبات الحقيقة (ابن عاشور ، ١٢/١١٠)^{١٤} والملاحظ أنه لم يجادلهم في أمر الآباء ، نقل النظر إلى تبعة موقفه هو لو استجاب لهم ، وهو تحويل لموضع النقاش من الجدل في الموروث إلى المسؤولية عن الاختيار . وصيغة استفهام هنا لكن وظيفتها في المقام ليست طلب الخبر — فهم يعلمون أنه ينهاهم .

والأدق أن يلحظ أمر آخر : أنهم لم يعارضوا حجته التي ساقها . هو احتج بأن الله أنشأهم واستعمرهم في الأرض ، فلم يردوا هذا بشيء بل نقلوا مناط الحكم من الدليل إلى ما وجدوا عليه آباءهم . وهذا العدول عما طرح إلى غيره عُدَّ خرقاً لمبدأ المناسبة ، يفضي إلى استلزام يتصل بمعيار الاحتجاج عندهم . ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ . لقد وصل حوار قوم النبي صالح (عليه السلام) درجات عالية من الرفض لما جاء به ، فبعد أن ذكروا بأسهم من حاله ، ذكروا كذلك أنهم يشكون في صدق أنه مرسل إليهم ، وزادوا في ذلك بحروف التأكيد ، ومريب هنا من أراب إذا أوقع في الريب . يقال : رابه وأرابه بمعنى ووصف الشك بذلك تأكيد كقولهم : جدَّ جدَّه (الحنبلي ، ١٠/٥١٣)^{١٥}.

كلامهم هذا يمثل خرقاً لمبدأ الكيف ، فهم يشكون في دعوة النبي صالح (عليه السلام) ، دون أن يقدموا دليلاً يعضد موقفهم وبمجرد نكر الشك وحده يمثل خرقاً لمبدأ الكيف . كذلك يلاحظ تكثيف لافت : تأكيد بـ"إن" ، ولام التوكيد ، ثم وصف الشك بـ"مريب" — والإرابة من جنس الشك . وقاعدة الكم عند غرايس تتصل بقدر المعلومات المقدمة ، وتدعو إلى ألا يزيد المتكلم على ما يقتضيه المقام ولا ينقص عنه .

لكن — وهذا موضع دقيق — لا يكفي مجرد تعدد عناصر التوكيد لإثبات خرق قاعدة الكم ، وإنما ينظر في ذلك إلى مدى حاجة المقام إلى هذا القدر من التقرير ، وما إذا كان التوسع في التعبير يؤدي وظيفة تداولية يمكن استنباطها من السياق .

فإن ثبت أن الزيادة تجاوزت ما يقتضيه مجرد الإخبار عن شكٍّ واقع ، أمكن قراءتها بوصفها خروجاً عن المتوقع من مقدار المعلومات ، له وظيفته في المقام . قارن بين النداءين : هو ناداهم : ﴿يَا قَوْمُ﴾ بالإضافة إلى ياء المتكلم ، وفيها ما فيها من إعلان الانتماء . وهم نادوه : ﴿يَا صَالِحُ﴾ بالاسم مجرداً . هذا التقابل في اختيار صيغة النداء يبرز تبايناً في تحديد العلاقة بين الطرفين ، وهو معطى تداولي يعضد قراءة الاستلزام ولا ينفصل عنها .

الدور الثالث — جواب صالح عليه السلام

﴿يَا قَوْمُ﴾ يعود إلى الصيغة نفسها بعد جفاء الرد ، ثبات في تحديد العلاقة رغم تغير الطرف الآخر .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ لم يقرر دعواه تقريراً مباشراً بل ساقها في صورة شرطية .

الاستفهام هنا للإنكار ووظيفته في السياق حجاجية ؛ لأن النبي صالح (عليه السلام) لا يطلب إجابة ؛ لأنه يعلم أن لا أحد يستطيع أن ينصره من الله إذا عصاه (ابن عاشور ، ١٢/١١٢)^{١٦}.

المعنى الضمني الذي ولده هذا الخرق ليس جواب قومه ؛ وإنما يدفعهم إلى استنتاجه بأنفسهم وهو الاستحالة العصيان بعد هذه الحجة ، أي كيف تريدونني أعصي أمر الله . ﴿يَا قَوْمُ﴾ يعود إلى الصيغة نفسها بعد جفاء الرد ، ثبات في تحديد العلاقة رغم تغير الطرف الآخر .

في المقطع السابق كان لهم دور : ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ...﴾ وهنا يتكلم صالح ثم لا يردون بقول . الذي جاء في موضع الرد هو : ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ .

وهذا في تحليل الخطاب معطى تقيل : الفعل حل محل الدور الكلامي . فهم لم يمتنعوا عن الرد بل ردوا بما هو أبلغ من القول : بالإتيان بعين ما نهوا عنه . والقاعدة التي أستخلصها لك من هذا : حين ينقطع تعاقب الأقوال في نص حوار لا تعد ذلك فراغاً ، أسأل : هل حل شيء محل الدور الغائب ؟ فقد يكون الفعل نفسه هو الجواب . الملاحظة الثانية : الإشارات وحضور المشار إليه

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ اسم إشارة للقريب . والإشارة من أوضح المعطيات التداولية ، لأنها لا تفهم إلا بحضور المشار إليه في مقام التخاطب ، فالنص يضعنا في موقف مشهود لا في إخبار مجرد . ثم يلحظ أمر آخر : لم يقل "هذه ناقة" بل أضافها إلى اسم الجلالة ، وهي إضافة تقرأ في السياق على وجه التشريف ، ولها أثرها في تكييف الفعل الواقع عليها لاحقاً : فالعقر لم يقع على دابة بل على ما أضيف هذه الإضافة ووصف بأنه ﴿آيَةٌ﴾ . الملاحظة الثالثة : بنية الأمر — لا شيء متروك للاستنباط انظر إلى تسلسل الأفعال الكلامية في دور صالح : أمر : ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾

نهبي : ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ تحذير مقرون بالنتيجة : ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾

بناءً مكتمل : المطلوب ، والممنوع ، وتبعة المخالفة . ووجه الأهمية هنا أن الخطاب لم يترك شيئاً للاستلزام ، كل شيء مصرح به .

وهذا الوضوح التام له وظيفته في السياق: فالمخالفة بعده لا تجد لها مخرجاً في دعوى الالتباس. الملاحظة الرابعة: ﴿تَمَنَّوْا﴾ — أمر ليس بأمر ﴿فَقَالَ تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ التمتع: التلذذ بالمنافع والملاذ التي تترك بالحواس، ولما كان التمتع لا يحصل إلا للحي عبر به عن الحياة (الرازي، ٢١/١٨) ^{١٧}. الصيغة صيغة أمر، لكن وظيفتها في المقام ليست الطلب قطعاً — إذ لا يتصور أن يأمرهم بالتمتع طلباً. وهذا من أوضح ما يمثل به الفعل الكلامي غير المباشر لوجود معنى ضمني أن تأتي الصيغة على شكل، وتؤدي وظيفة أخرى يحددها المقام. إذن اللفظة (تمنوا) خرقاً لمبدأ الكيف والمناسبة؛ لأنها ظاهراً التلذذ والتمتع وباطناً العذاب بعد عقر الناقة وبمدة محدودة وهذا يزيد الأثر النفسي على قومه. ثم يأتي ما يقطع كل احتمال آخر: ﴿ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾. فالجملة اللاحقة تغلق باب قراءة الأولى على أنها إذن أو ترخيص. وهنا فائدة منهجية: حين تشك في وظيفة صيغة ما، انظر إلى ما بعدها، فالسياق اللاحق كثيراً ما يكون هو القرينة الحاسمة. الملاحظة الخامسة: من الإيهام إلى التحديد قبل الفعل، جاء الوعيد موصوفاً بالقرب: ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ — قريب دون تعيين. وبعد الفعل، صار محدداً: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾. هذا الانتقال من الإيهام إلى التحديد يلحظ فيه تغير وظيفة الخطاب: فالإيهام يناسب مقام التحذير الذي يبقى باب العدول مفتوحاً، والتحديد يناسب مقاماً آخر انتهى فيه ذلك. الكلام الظاهري يمثل خرقاً لمبدأ الكم، كان الهدف منه لمعنى ضمني يقتضيه السياق، فالحوار القرآني غايته في هذا الإخبار عند موعد العذاب (ثلاثة أيام) وحقق هذا الإخبار تحذيراً شديداً يستشعر بقرب الهلاك، وهذا الاستشعار يجعل المتلقي في حالة خوف مستمر.

الملاحظة السادسة: تحول الصوت بعد قول صالح الأخير، يتغير المتكلم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ انتقلنا من الحوار المحكي إلى الصوت الذي يحكيه. ولم يعد صالح متكلماً بل صار متحدثاً عنه: ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾. فالحوار البشري انتهى بالكامل، ولم يبق إلا الصوت الأعلى.

الملاحظة السابعة — وهي أدقها في تقديري: من مخاطب إلى متحدث عنه تتبع موقع القوم في الخطاب عبر المقطعين: في البداية كانوا مخاطبين: ﴿يَا قَوْمُ﴾ — ﴿فَذَرُوهَا﴾ — ﴿لَا تَمْسُوهَا﴾ — ﴿تَمَنَّوْا﴾. ضمير المخاطب حاضر في كل موضع. ثم في الخاتمة: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ — ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ — ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ — ﴿أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾. خرجوا من موقع المخاطب إلى موقع الغائب المتحدث عنه، بل يسمون بالاسم الصريح مرتين: ﴿تَمُودُ﴾ — بعد أن كانوا ينادون. ويمكن أن يقرأ هذا التحول في الإشارات بوصفه مواكباً لما جرى: فمن لم يعد قائماً لا يخاطب، وإنما يتحدث عنه.

إن هذا التحول الإشاري يعدّ قرينة دلالية تداولية مساندة للمعنى الضمني، وتكمن هذه القيمة في كونه إضاءة للسياق الحوارية في القرآن الكريم، وتعبير وضع القوم من أطراف في عملية التخاطب إلى موضع الحكم، وهذا التعبير علامة تداولية جسدت انتهاء الحوار بينهم. وفي ضوء ما تقدم يمكن ربطه بمبدأ الكم من جهة الإيجاز؛ بدليل أنه اكتفى بقدر من الألفاظ لجعل المتلقي هو نفسه يستنتج المعنى الضمني لسوء العاقبة. هنا يكمن التفاعل بين ما قيل، وبين وما لم يقل ويعطي لخاتمة الحوار قوة حجاجية فاعلة جاوزت كل حدود الإخبار.

ثالثاً: في سورة الشعراء

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ (١٤٦) فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنَحُّنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) جواب قومه هنا قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ أَتَاهُمَا بالسر وعدم الإدراك من غير تقديم إثبات على كلامهم (ابن عاشور، ١٩/١٧٧) ^{١٨} جواب قومه إتهام واضح من غير حجة تثبت صحة كلامهم، وهذا يمثل خرقاً لمبدأ الكيف لم يقدموا ما يثبت صحة كلامهم. وجعلوا ذلك وسيلة للطعن في رسالته. وما يؤكد هذا المعنى دلالة (إنما) فأصل وضعها أنها لما لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته أو يُنزل هذه المنزلة (الجرجاني، ٣٣٠) ^{١٩}، ودلالة الحصر في هذا السياق على أنه نقل للمخاطب من كونه صاحب دعوى تحتاج إلى المناقشة وإقامة الحجة، إلى كونه شخصاً قد غلبه السحر ويهذي بما لا معنى. أن المعنى الذي أضافته (إنما) الطعن في أهلية المتكلم بدلاً من مناقشة مضمون رسالته، وتثبيت هذا الاتهام بصورة قطعية. ولهذا فأن ما يقوله لا يعدو أن يكون كلاماً لا يقوم على أساس من العقل أو الحقيقة.

وعززوا موقفهم تكذيبهم بكونه بشراً مثلهم ؛ لأن زعمهم ينافي أن يكون رسولا من الله ؛ لأن الرسول في زعمهم لا يكون إلا مخلوقا خارقا للمألوف كأن يكون ملكا . فجملة (ما أنت إلا بشر مثنا) مؤكدة لمضمون الجملة (إنما أنت إلا من المسحرين) باعتبارها متفتتين على النفي وعدم تصديقهم به . (ابن عاشور ، ١٩٠/١٧٧)^{٢٠}

المعنى الضمني لقولهم المساواة المطلقة في الطبيعة البشرية: الأقوام يقررون حقيقة مشهودة، وهي أن النبي لا يختلف عنهم في التكوين الجسدي؛ فهو يأكل، ويشرب، ويمشي في الأسواق، ويموت. ٢. المعاني الضمنية (الخفية والنفسية) تتضمن هذه الكلمة المتكررة في القرآن عدة رسائل مبطنة أراد المكذبون إيصالها: استبعاد الاصطفاء (التساؤل الاستكاري): المضمون الخفي هنا هو: "ما الذي يجعلك مميزاً عنا لتتلقى الوحي؟" هم يرون أن التساوي في البشرية يمنع التمايز في المكانة الروحية والاصطفاء الإلهي.

رابعا: في سورة النمل

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا تَمَرَّنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥١) فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٣) ﴿

هذه السورة مثل غيرها من السور خرقوا قوم النبي صالح (عليه السلام) مبدأ التعاون تمثل الخرق الأول في ردّهم (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ) قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (ومعنى التطير التشاؤم فهم يجعلون ما يصيبهم من نحس أو مكروه إلى صالح (عليه السلام) ، واصل التطير أن العرب كانوا يستدلون بحركة الطير واتجاهها على الخير أو الشر ، ثم اتسع استعمال اللفظ ليشمل مطلق التشاؤم. (ابن عاشور ، ٢٨١/١٩)^{٢١}.

وتشاؤم قومه يمثل خرقا لمبدأ الكيف ؛ لأن كلامهم مبني على اعتقادهم دون دليل يُذكر ، وكذلك يمثل خرقا ثانيا لمبدأ المناسبة ؛ لأن كلام النبي صالح (عليه السلام) (الدعوة إلى الله وردّهم مناقضا دعوى التشاؤم.

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

فلم يزلوا بهذا الحال الشنيعة حتى إنهم من عداوتهم تقاسموا فيما بينهم كل واحد أقسم للآخر لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، أي نأتيه ليلا هو وأهله فلنقتلهم ثم لنقولن لولّيه إذا قام علينا وادعى علينا أنا قتلناه ننكر ذلك وننفيه ونحلف إننا لصادقون فتواطؤوا على ذلك (ابن عاشور ، ١٩٠ ، ٢٨٣)^{٢٢}.

الخطاب هنا يُظهر خرقا لمبدأ المناسبة ؛ لأنهم يظاهرون بشيء والحقيقة هم يتآمرون عليه ويريدون أبعاد التهمة عنهم .

وبنفس الوقت القول يتضمن خرقا آخر لمبدأ الكيف ما شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

يتجلى خرق مبدأ التعاون في حوار قوم صالح عليه السلام، ولا سيما في الآية الكريمة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، من خلال خرق مبدأ الكيف خرقاً أساسياً؛ إذ يعمد القوم إلى التخطيط للكذب وإنكار علاقتهم بهلاك صالح وأهله، ثم يؤكدون صدقهم تأكيداً زائفاً. كما يتضمن خطابهم خرقاً لمبدأ الكم، لأنهم يحجبون عن المخاطب المعلومات الجوهرية المتعلقة بالجريمة، ويقتصرون على تقديم رواية ناقصة ومضللة. ويمكن أن يلحظ في قولهم أيضاً جانب من خرق مبدأ الطريقة؛ لما يتضمنه التعبير من مراوغة لغوية تقوم على نفي الشهادة والمشاهدة بدل التصريح بالحقيقة. وينتج عن هذه الخروقات معنى ضمني يتمثل في تعمد التضليل، والتستر على الجريمة، وإيهام المخاطب بالبراءة، والتخطيط للإفلات من المسؤولية. ومن ثم يتحول الخطاب من أداة للتعاون والإخبار إلى أداة للمراوغة

خامسا: في سورة القمر

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَلَلّٰهِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌّ (٢٨) فَتَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)

تضمن الحوار الوارد في سورة القمر الكثير من معاني ضمنية. فقد عرض النص القرآني موقف ثمود من دعوة صالح عليه السلام في بناء حواري متدرج، بدأ بالتكذيب بالنذر، ثم انتقل إلى الاعتراض على بشرية الرسول وانتمائه إلى قومه، ثم إلى التشكيك في اختصاصه بالوحي، وانتهى إلى الطعن المباشر في صدقه، قبل أن ينتقل السياق من مرحلة الأقوال والاعتراضات إلى مرحلة الاختبار العملي ثم إلى وقوع العذاب. أولاً: قوله تعالى: ﴿أَبَشِّرْنا مِنا وَاحِدًا نَتَّبِعُ﴾ وخرق مقولة العلاقة والكيف إذ بدأ النص بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾، ثم ينقل خطابهم مباشرة: ﴿فَقَالُوا أَبَشِّرْنا مِنا وَاحِدًا نَتَّبِعُ﴾. ويكشف الانتقال من الخبر إلى القول المباشر عن استحضار الموقف الحواري وإبراز حجتهم كما صدرت عنهم. وقد جاء الكلام في صورة استفهام إنكاري، وليس استفهاماً حقيقياً يراد به طلب معرفة ما إذا كان صالح عليه السلام بشراً أو واحداً منهم؛ إذ إنهم يعلمون ذلك علماً مباشراً. تمثل خرق مبدأ التعاون في قولهم (أبشراً منا واحداً نتبعه) والمعنى أن صالحاً بالإنذارات فجدوا بها وكانت شبهتهم في التكذيب ما أعرب عنه قولهم (أبشراً منا واحداً نتبعه) إلى آخره، فهذا القول يقتضي كونه جواباً عن دعوة وإنذار، وإنما فصل تكذيب ثمود وأجمل تكذيب عاد لقصد بيان المشابهة بين تكذيبهم ثمود وتكذيب قريش إذ تشابهت أقوالهم. والاستفهام هنا إنكاري (ابن عاشور، ١٩٦/٢٧)٢٣. (يتمظهر الخرق لمبدأ الكيف والمناسبة والكم من خلال تبديل مسار حوارهم مع النبي صالح (عليه السلام) من التوحيد والدعوة إلى الله إلى صفته البشرية وكونه واحداً منهم وهذا خرقاً لمبدأ الكيف إذ جعلوا الانتماء المشترك مستنداً للحكم بالضلال.

أما خرق مبدأ العلاقة فيتمثل في انصرافهم عن جوهر القضية محل الحوار، وهي صدق صالح عليه السلام وما جاء به من دعوة وحجة، إلى التركيز على وصفه البشري وانتمائه إليهم. فالوصف «بشراً منا واحداً» لا يمثل، في ذاته، علاقة مباشرة بمسألة صدق الرسالة أو بطلانها، مما يكشف عن انتقال الخطاب من مناقشة الحجة والدعوى إلى الطعن في صفة صاحب الدعوى. وهنا تتضح أهمية العبارة «مِنا وَاحِدًا»؛ فهي ليست مجرد معلومة وصفية، وإنما تؤدي وظيفة حجاجية. فقد جعل القوم من كون صالح عليه السلام واحداً منهم وبشراً مثلهم أساساً لرفض اتباعه. غير أن هذه المقدمة لا تؤدي منطقياً إلى النتيجة التي أرادوها؛ فكون الرسول بشراً لا يقتضي بطلان رسالته، وكونه من قومه لا يمنع اختصاصه بالرسالة. وعليه فإن خرق مبدأ العلاقة هنا يكشف معنى ضمناً أعمق، هو أن ثمود نقلوا مركز الحوار من صدق الرسالة إلى هوية الرسول، ومن مناقشة الحجة إلى الاعتراض على الشخص. وهذا التحول يمثل أحد المداخل الأساسية لفهم طبيعة الرفض قومه لدعوته.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِذا لَفِى ضَلالٍ وَسُغُرٍ﴾

ومن هنا يمكن استحضار مبدأ الكيف؛ لأنه أعطى الحكم القطعي على اتباع صالح بأنه يؤدي إلى الضلال وسُغُرٍ لم تدعمه في السياق قرينة أو حجة تثبت صحته. كما يمكن رصد صلة ذلك بمبدأ العلاقة؛ لأن النتيجة لا ترتبط ارتباطاً منطقياً لازماً بالمقدمة التي أقاموا عليها حكمهم. وعليه، فإن المعنى الضمني الذي ينتج عن هذا الخطاب يتمثل في أن قوم صالح (عليه السلام) لا يبحثون عن حقيقة الدعوى، وإنما يريدون تثبيت موقف الرفض مسبقاً؛ فبمجرد أن ثبت في تصورهم أن صالحاً بشر منهم، انتقلوا إلى الحكم على أتباعه بالضلال.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿أَأَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذابٌ أَشِرٌ﴾ القمر ٢٥

يتجلى خرق مبدأ التعاون في خطاب قوم ثمود، إذ يكشف هذا القول عن إخلال واضح بمبدأ الكيف عند غرايس؛ فقد أطلق القوم حكماً جازماً على صالح عليه السلام، فوصفوه بأنه «كذاب أشير»، من غير أن يقدموا دليلاً يثبت صحة هذا الاتهام. ومن ثم فإن وصفهم لا يمثل نتيجة حجاجية قائمة على البرهان، وإنما يمثل حكماً تقويمياً يراد به إسقاط مصداقية المخاطب ورفض دعوته.

كما يمكن ملاحظة خرق مبدأ العلاقة لأنهم قدموا معلومات لا تنهض حجة على بطلان دعوته، لأن كونه واحداً منهم لا يستلزم بطلان رسالته. وينتج عن هذا الخرق معنى ضمني مفاده أن قوم ثمود ينكرون أهلية صالح عليه السلام للرسالة، ويستبعدون إمكان اختصاص بشر مثلهم بالوحي، ولذلك يحاولون تحويل مسار الحوار من مناقشة مضمون الرسالة ودليها إلى الطعن في شخصية الرسول ومصادقته. ويكشف ذلك عن استراتيجية حجاجية تقوم على التشكيك في المتكلم بدل مناقشة الحجة التي يقدمها، وهو ما يعزز البعد التداولي في الآية ويبرز أن المعنى لا يتوقف عند الدلالة الصريحة للألفاظ، بل يتولد كذلك من السياق ومن طبيعة العلاقة التخاطبية بين أطراف الحوار.

يأتي بعد ذلك الاستفهام الثاني: ﴿أَأَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا﴾. وهذا الاستفهام لا يراد منه الاستعلام الحقيقي؛ لأن القوم لا ينتظرون جواباً يعرفهم بمن ألقى عليه الذكر، وإنما هو استفهام إنكاري احتجاجي.

ويكشف هذا الاستفهام عن انتقال آخر في مسار الاعتراض؛ فإذا كان الاعتراض الأول قد تعلق ببشرية صالح عليه السلام وكونه واحداً منهم، فإن الاعتراض الثاني يتجه إلى اختصاصه بالوحي والذكر دون غيره.

ومن منظور التداولية، يمكن عدّ هذا الموضوع استمرارًا لخرق مقولة العلاقة؛ لأن القوم لا يناقشون مضمون الذكر الذي جاء به صالح عليه السلام، ولا يقدمون دليلًا على بطلانه، وإنما يجعلون اختصاص صالح بالوحي هو موضع الاعتراض.

ويحمل الاستفهام معنى ضمنيًا يمكن تقديره ب: لماذا اختص صالح بالوحي من بيننا؟ وما الذي يؤهله لذلك دون غيره؟ ويكشف هذا المعنى عن اعتراض القوم على مبدأ الاصطفاء ذاته؛ إذ يبدو أنهم يتعاملون مع التساوي في الأصل البشري والاجتماعي بوصفه مقتضىً للتساوي في الأهلية للرسالة. وبذلك يصبح اعتراضهم على الاختصاص بالذكر امتدادًا طبيعيًا لاعتراضهم السابق على بشرية الرسول. أما لفظ «أشر» فيضيف إلى وصف الكذب حكمًا تقويميًا آخر، فيصبح صالح عليه السلام في خطابهم جامعا بين الكذب والشر والبطر. وبذلك يتحول الخطاب من مناقشة الرسالة إلى إسقاط المصادقية الشخصية للمرسل.

أما (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ) فهنا يتضح فن الإبهام ليكون الوعيد أحفل بالانتقام والتهديد أشد أثرا في نفوسهم ، وأورده مورد الإبهام وإن كان هم المعنيين ؛ لأنه أراد وقت الموت ، ولم يرد غدا بعينه (الدرويش ، ١٩٩٩ ، ٣٥٨) ٢٤ .

جاء الخطاب محددًا بيوم غدا ، ليولد معنى ضمني وهو الترقب لمصيرهم فهنا خرق مبدأ الكم ؛ لأجل وظيفة تداولية أكثر قوة وتأثيرًا وتجعلهم يعيشون الخوف والترقب في كل لحظة وبهذا يصبح التأثير أقوى ، وأشد على المخاطب.

عند النظر إلى الآيات في مجموعها، يظهر أن الحوار يقوم على تدرج حاجي واضح، يمكن تمثيله على النحو الآتي:

ب بالنذر	ض على كونه بشرا
ض على كونه واحدا منهم	تباعه
في صدقه	ض على اختصاصه بالوحي
الناقة	الناقة
الاختبار	عذاب

إن هذا التدرج بين أن خرق مبدأ التعاون لم يكن ظاهرة منفصلة عن بنية الحوار، وإنما أسهم في بناء مسار حاجي متكامل.

الخاتمة

بعد الرحلة الممتعة في رحاب القرآن الكريم توصلت الباحثة إلى أهم النتائج وهي:

- حوار النبي صالح(عليه السلام) مادة ثرية للدراسة التداولية ؛ لأنه يتكون من المعنى الصريح والمعنى الضمني الذي يدل عليه السياق.
- مفهوم الاستلزام الحوارية في حوار النبي صالح (عليه السلام) على دلالات صريحة وضمنية تستنبط من السياق التداولي .
- كشف البحث أن خرق مبدأ التعاون تم وفق مقاصد تداولية لمعان ضمنية .
- خرق مبدأ التعاون تم فقط على لسان قوم صالح (عليه السلام)؛ وهذا كشف عن إنكارهم وتشكيكهم.
- كشف البحث عن انتقال الحوار من الإبهام إلى التحديد تم وفق مبدأ الطريقة .
- بين البحث تكرار ورود الاستفهام في الحوار خاصة من قومه ،ولم يُستعمل بمعناه الحقيقي ، بل استعمله بمعناه المستلزم الضمني ،فخرج بدلالات مختلفة منها الإنكار والسخرية، لغايات تداولية .
- كشف البحث ان التدرج الحاجي في كل مرة قابله برفض واعتراض .

الهوامش

- ١- آفاق جديدة في البحث اللغوي، ٢٠٠٢ ، ٣٢ .
- ٢- التداولية عند العلماء العرب ، ٢٠٠٥ ، ٣٤ .
- ٣- المصدر السابق.
- ٤- المصدر السابق.
- ٥- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ١٩٩٨ ، ٢٣٨ .
- ٦- تبسيط التداولية ، ٤٧ .
- ٧- المصدر السابق .
- ٨- التداولية عند العلماء العرب ، ٣٣ .

- ٩- القاموس الموسوعي للتداولية ، ٢١٤ .
- ١٠- اللباب في علوم الكتاب: ١٩٩/٩ .
- ١١- تفسير المراغي: ٢٠١/٨ .
- ١٢- التحرير والتنوير: ١١٠/١٢ .
- ١٣- اللباب في علوم الكتاب: ١٠ / ٥١٣ .
- ١٤- المصدر السابق .
- ١٥- اللباب في علوم الكتاب: ٥١٣/١٠ .
- ١٦- المصدر السابق.
- ١٧- تفسير الرازي: ٢١/١٨ .
- ١٨- التحرير والتنوير: ١٩ / ١٧٧ .
- ١٩- دلائل الأعجاز: ٣٣٠ .
- ٢٠- التحرير والتنوير: ١٧٧/١٩ .
- ٢١- المصدر السابق: ١٩ / ٢٨١ .
- ٢٢- المصدر السابق: ١٩ / ٢٨٣ .
- ٢٣- المصدر السابق: ١٩٦/٢٧ .
- ٢٤- أعراب القرآن وبيانه: ٢٧ / ٣٥٨ .

مصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن عاشور محمد الطاهر ،تفسير التحرير والتنوير ،الدار التونسية للنشر ،١٩٨٤ .
- الجرجاني عبد القاهر (ت ٤٧١هـ)، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر،مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ت.
- الحنبلي الدمشقي لأبي حفص عمر بن علي (ت ٨٨٠هـ)، حققه مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨.
- الدرويش محيي الدين ، أعراب القرآن وبيانه ، دار ابن كثير ،و دار اليمامة ، دمشق، ط٧ ، ١٩٩٩ .
- الرازي فخر الدين (ت ٦٠٤هـ)،تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ،ط١،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،
- صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب ،دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ،ط١ ،دار الطليعة ،لبنان ، ٢٠٠٥ .
- عبدالرحمن طه ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ط١ ، المغرب ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٨ .
- محمد مزيد بهاء الدين ، تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ط١ ، القاهرة ، ٢٠١٠ .
- المراغي أحمد بن مصطفى ، تفسير المراغي ، ط١ ،شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ،مصر، ١٩٤٦ .
- موشارل جاك ، القاموس الموسوعي للتداولية ،ترجمة مجموعة من الأساتذة ، تونس ، المركز الوطني للترجمة ، ١٩٩٤ .
- نحلة محمود احمد ، افاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٢ .